ادوارد برون

فى اليوم الخامس من يناير سنة ١٩٢٦ مات الاستاذ الجليل ، ادورد برون ، استاذ اللغة العربية ، بجامعة كمبردج ، ففقدت الجامعة بموته ابنا من أبر أبنائها ، وعلماً من أشهر أعلامها ، ومعلما يفيض على تلاميذه من غزير علمه ، ويمدهم بروح من عنده ، ومستشرقا طار بحق صيته فى جميع الآفاق فشرق وغرب ، وأتهم وأنجد ، ولا عجب فقد كان منقطع القرين ، نسيج وحده .

رباه أبوه ، السير بنيامين برون ، المهندس المشهور ، فى مدرسة إيتن ، وهى احدى المدارس العامة ، التى يذهب اليها أمثاله من أولاد النبلاء والموسرين ، ومن هذا المعهد القديم قصد جامعة كمبردج ، وانتسب الى كلية بمبروك ، فأظهر أصالة فى الرأى ، وحدة فى الذكاء ، ونفاذا فى القريحة ، ومضاء فى العزيمة ، فجمع بين دراسة الطب واللغات الشرقية ، وحصل على درجات علمية متعددة .

رحل الى المشرق ؛ فأقام فى بلاد الفرس عاماً كاملا ، متنقلا بين ربوعها وعاكفاً على دراسة آداب أهلها وعاداتهم ، ثم زار مصر ، واتصل بعلمائها وقادة الفكر فيها ، وحسنت صلته بالاستاذ الامام الشيخ محمد عبده ، واختلف الى دروسه التى كان يلقيها بالأزهر . وكثيراً ما كان يذهب الى قهوة بيت القاضى ، لاستماع رواية عنتره من أفواه الرواه ، ولم يفته أن يأخذ الأدب من معينه العذب ، ومنهله الصافى ، فورد دار العلوم وبها يومئذ من فحول

الأساتذة ، استاذنا المرحوم سلطان بك محمد ، والمرحوم حسن افندى توفيق ، وشغف بدروس الثانى شغفاً عظيما ، فسعى سعيه لأخذه معه فى كمبردج ، وعلى الرغم من المعارضة التى لقيها من دنلوب تم له ما أراد ، وساعده حسن افندى توفيق فى نشر الأدب العربى فى كمبردج ، غير أن المنية عاجلته فلم ير ثمرة غرسه ونتيجة كده

وقد تفضل الاستاذ الفاضل ، الشيخ عبد الخالق عمر ، المدرس بدار العلوم فكتب الكلمة الآتية : —

كان المستر برون ، المستشرق المعروف ، يحضر مع طلبة السنة الثالثة بدار العلوم ، بعض دروس المطالعة والانشاء ، وكان يقوم بتدريس هاتين المادتين المرحوم الاستاذ حسن افندى توفيق . كان الاستاذان تولاهما الله بالحسنى . يتمائلان ظرفاً وسهولة أخلاق ووداعة وعواطف شريفة ، ولقد يخيل الى المتتبع لهما أنهما كانا قد نشآ فى بيئة واحدة ، وتربيا تربية متفقة لما يلوح عليهما من حب الخير للناس ، والفائدة للمتعلمين ، والبحث وراء العلم النافع . ولقد كنا معشر الطلبة نأنس للأستاذ برون بقدر انسنا لاستاذنا حسن افندى توفيق ، فقد رأينا فى المستر برون الرجل الذى يقولون عنه أنه المثل الأعلى للأخلاق والكمال . إذا حادثته فأنت تحادث رجلا شرقيا ، ملىء علما وحكمة ، وإذا خالطته فانما تعاشر رجلا لايمكن أن يكون غربياً . وانى محدثك عن شىء كان بينه وبين طلبة هذه السنة ينبئك عن مبلغ علمه الغزير ، واطلاعه الواسع

قال له الطلبة يوما « انا نريد العلم بشىء عن اللغة الفارسية » فرأى أن

يحدثنا عن فن البديع فيها ، وقام الى منبر الاستاذ ، وأخذ يوازن بين أنواع البديع فى اللغتين العربية والفارسية ، فاذا ما وازن ، سرد عليك المثل من اللغتين ، وقل أن يأتى بمثال للذى يحدثنا عنه الا ذكر اسم قائله ، سواء فى النظم أم فى النثر . وقل فينا من يصل الى هذا الحد . ولست مبالغا إن قلت قل عندنا من يحوم حول هذا الحمى

كان برون رحيم القلب ، يعطف على الفقراء ، ويواسيهم بماله . بينما كنا جلوسا ، اذ حضر اليه رجل معوز ، يستمد منه المعونة ، فشرح له حاله والمصائب التى انتابته ، فقال له كم يكفيك ؟ فأجاب الرجل ماعلى المحسنين من سبيل ، فسأله ألك عائل ؟ فقال كرام الرجال ، فقال والله لا كفينك ذل السؤال ، ثم آواه وأجرى عليه راتبا غير مقطوع

ولقد كان أيام الحرب ملجأ الغرباء من الأتراك ، أخرج بعضهم من المعتقل ، وساعده فى الحصول على عمل شريف يرتزق منه . كنت ذات يوم مكبا على القراءة ، فأحسست وقع أقدام ، فنظرت فاذا الاستاذ واقف امامى فحيانى ثم قال :

أيها الصديق ! هل لك فى عمل تكسب به من الله أجراً ؟ ان فى مستشفى الأمراض العقلية طالبا تركيا ، وقد مضى عليه زمن ، وهو غرض النائبات وكان بودى أن أرسله الى أهله ، رجاء أن يكون فى نزوله بهم ، واقامته معهم ، بعض السلوى له ولهم . فكتبت الى وزارة الخارجية وكررت عليها الرجاء أن تسمح بارساله ، وبعد لأى أجابتنى الى ماطلبت ، ولما كاشفت الطبيب عما عزمت عليه ، أخبرنى أنه ليس فى استطاعة ذلك الطالب أن

يسافر منفرداً ، ولا بد له من حارسين ، سيتولاه أحدهما بالليل ، والآخر بالنهار . فحرت فى الأمر ، ولكن ذلك لم يفت فى عضدى ، فأخذت أبحث عن حارسين أمينين ، غير ضنين بالمال ينفق عليهما فى ذهابهما ورجوعهما ولا شحيح بالمكافأة . ولكن الحرب الضروس قطعت كل أمل فى تحقيق هذه الأمنية ولهذا لا يزال المسكين يقاسى آلام الداء ويتجرع مرارة الفراق

وقد أخبرنى أمس مدير المستشفى انه لم يبق بين صاحبنا وبين القبر الا قيد ذراع ، وأرى من واجب الانسانية أن نذهب لمواساته ، وتخفيف ما يعالج من ألم فان شئت كنت لى خير رفيق ؟ »

كان الاستاذ يقص على هذه الحادثة ، ويصور لى حال الطالب كأنه يراه ، والله عليم بمقدار ما انطوت عليه جوانحه من الحزن ، وبعد أن انتهى من قصصه اتفقنا على موعد ، فأحضر سيارته ، فأقلتنا وانضم الينا بعض المسلمين ، وأسرع بنا السائق حتى وصلنا الى المستشفى ، فوجدنا صاحبنا صامتاً ولا صمت أهل القبور ، يدعى فلا يجيب ، ويسأل فلا يرد سؤالا فأيقنا أنه لا محالة هالك ، فكشف الطبيب عن صدره ، وضرب عليه بأصبعه ضربات شفت على ما تكن حنايا الضلوع من نذر الموت

عدنا الى كمبردج ، ولم تك الا عشية أو ضحاها ، حتى نعاه النعاه وحم القدر . فسارع الاستاذ الى المستشفى ، ومعه طائفة من مسلمى الطلبة ، فتولوا دفنه بعد أن أقاموا سائر شعائر الدين

هذه رواية أنقلها صادقا ، علك توفق الى ادراك ما كان للاستاذ من فضل . وكان رحمه الله . يتخلق بأخلاق العرب ، يحتفى بزائريه فيقابلهم على

باب داره ، ويبالغ فى اكرامهم ، فلا يترك طيباً من القول إلا قاله ، ولا محمودا من الفعل إلا فعله . واذكر أنا كنا نتحدث مرة فى طرائق العيش فقال ان تقدم المدنية يقتل خلق السخاء ، ألست ترانى اذا أردت أن أدعو عدداً من اخوانى ، فكرت بادىء ذى بدء ، فى الاطباق والشوك والملاعق والكراسى والفوط والاسرة والحجر والأثاث والرياش الى ما لا حصر له مما يسمونه مرافق الحياة ، أما فى مصر فما هى الا أن تنحر الشاه ، وتوقد النار وتملأ الجفان بالثريد ، ثم تنادى هل من جائع ؟ فيجىء الناس من كل حدب فاذا امتلأت البطون ، لجئوا الى المضاجع ، فتقاسموا الحصير ، والتحفوا بالقبة الزرقاء ، وناموا ملء الجفون حتى الفجر ، فاذا هبوا من نومهم ، ذهبوا الى المساجد ، فشكروا الله على ما أعطى ، فاذا التقى بعضهم ببعض ، كانت تحيتهم السلام عليكم ورحمة الله . السلام عليكم ورحمة الله وهل فى الحياة أجمل من هذا ؟

اشتغلت مع الاستاذ عامين ، كانا من خير أعوام الحياة ، فلقد لقيت منه والداً براً ، وكنت محل عطفه ، وموضع رعايته . كذلك كان نصير الضعفاء ، والأمم المظلومة ، يقدس الحرية ، ويرى أنها حق طبيعى لكل انسان ، وطالما جهر برأيه لا يخشى لومة لائم ، ولا يرهب وعيداً . والمقالات التى دبجها يراعه ، إبان الحرب الكبرى ، ونشرتها امهات الجرائد الانكليزية شاهد عدل على ما أقول

أن امثال برون فى الرجال قليل — جرأة نادرة ، ذكاء مفرط ، علم واسع ، مجد تالد ، شخصية جذابة ، بسطة فى الرزق ، جاه عريض ، ومحبة

فى الخير ، ولهذا كان نجعة الرواد من بلاد العالم . إذا زرت حجراته القديمة فى الطابق الثانى من كلية بمبروك ، وجدت الوانا من الناس ، وسمعت السنة مختلفة ، فمن بدوى نزح من نجد ، الى فارسى من مدائن كسرى ، الى تركى وفد من ضفاف البسفور ، الى مصرى أروى ظمأه النيل ، الى فيلسوف من الهند ، الى عالم المانى ، الى مستشرق من بلاد النمسا والاستاذ بينهم محط الأمل ، وموضع الرجاء ، ومعين العلم الذى لاينضب

هذا قليل مما يمكن أن أكتبه باخلاص عن استاذنا الجليل برون ، وان موته لخطب جلل ، وسهم أصاب لغة العرب ، ورزء لاعزاء له . اللهم انك تعلم أنه كان رضى النفس ، طاهر القلب ، تقى السريرة ، برا بالفقراء ، يحب دينك ، ويقرأ كلامك ، فعامله بما أنت له أهل وتجاوز عن سيئاته ، واشمله برحمتك الواسعة انك سميع الدعاء ؟

محمد على المجذوب
مساعد الاستاذ بجامعة
كمبردج سابقاً